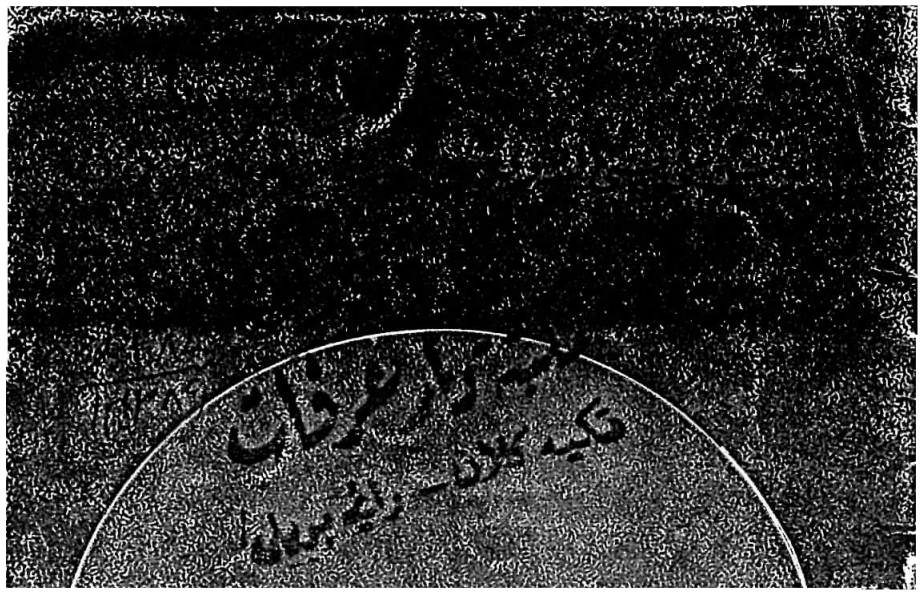

اسمعي يا سورية

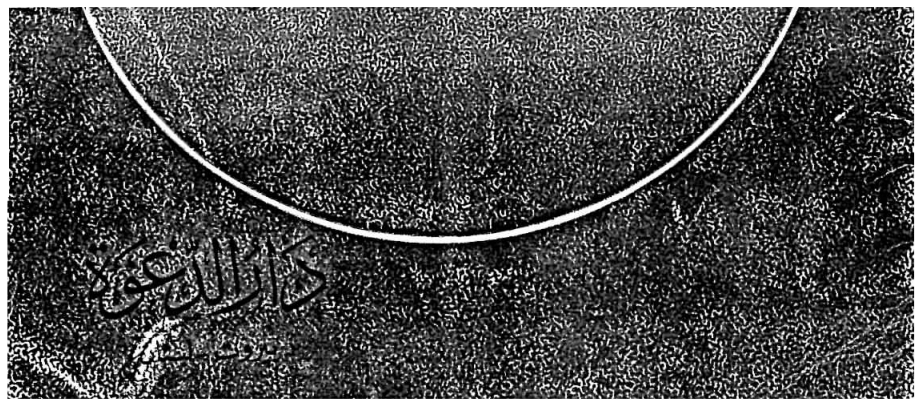

٣٥ ق.ل

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

اسمعي يا سورية (١)

أحييك يا سورية تحية من أحبك صغيراً ، وعاش في ذكرياتك وأخبارك دهراً طويلاً ، لقد سمع في طفولته ملاحم الإسلام ، وفتوح الشام فعرف مدنك وقراك كما عرف مدن بلاده وقراها ، ودرس في شبابه تاريخ الاسلام فرآك تشغلين منه مكاناً واسعاً ، وتضعين إليه صفحات مشرقة لا يزال المسلمون يستمدون منها الإيمان ، ولا يزال

(١) أذيع هذا الحديث من دار الاذاعة السورية بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

العرب يذكرون بها العهد الذي كانوا يحكمون فيه نصف المعمورة .

أحييك يا سورية تحية من نفسي وعقيدتي وضميري ، فكل منها ما يتنافس في تحيتك ، وكل منها يدين لك بالفضل ، فقد غمرت نفسي بالسرور والإيمان ببطولة من بذل نفسه وأراق دمه على أرضك ، وقويت عقيدتي في انتصار الروح على المادة ، والفضيلة على الرذيلة ، وانتصار قوة الإيمان على قوة السيف والسنان ، وقوة الأبدان ، وكثرة الأعوان ، وما اليرموك عنك ببعيد ، وما يوم حليمة بسر ، وأيقظت ضميري لفهم معان أسمى من السماء ، وأعذب من ماء بردى ، هي معاني الثقة بالله ، وعلو الهمة في سبيل الله ، والعطف على عباد الله ، والعدل بين الناس ، معان تجلت على أرضك وحواها تاريخك فتحيتي لك ياسورية تحية النفس والعقيدة والضمير .

أحييك يا سورية عن نفسي ، وأبلغك تحيات ملايين من

البشر يسكنون وراء البحار ، ويحنون إليك على بعد الدار .

لا تستغربي يا سورية العزيزة هذا العدد الضخم ، فان على شواطىء البحر الهندي ، ووراء جبال هملايا أمة كبيرة العدد ، قوية العاطفة ، صادقة الوداد ، قد عرفتك قديماً ، وأحبتك شديداً وذكرتك كثيراً .

ذكرتك كلما أذن المؤذنون ، وكلما دوى في الفضاء صوت « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » كلما سمعوا الأذان ذكروا مؤذن رسول الله ﷺ ، ذكروا بلالاً الحبشي ، فذكروا به الشام الذي آثره بالاقامة ، والاستراحة إلى يوم القيامة .

ذكروك كلما سمعوا ببطولة بطل ، ومغامرة مقدام ، ذكروا به بطل الأبطال « سيف الله خالد بن الوليد » — رضي الله عنه — الذي تبسم في وجه الموت وسخر بالمخاوف ، ورمى بنفسه في كل معركة ظن فيها الشهادة فخرج منها ظافراً منتصراً ، ذلك البطل الذي استهان

www.abulhasanalinadwi.org

بحيـاته فعزت ، وهانت نفسه عليه فكرمت ، هو الذي أذاقك يا سورية لذة الإيمان والعدل والرحمة والمساواة ، ولا يزال في حمص رمز قوة الإسلام ، ومفخرة الشام .

ذكروك كلما سئموا الظلم والخيانة ، وحنوا إلى العدل والأمانة ، وكلما رأوا حيفاً من الحاكمين وقسوة في الفاتحين ذكروا ذلك الفاتح الرحيم الذي كتب لأهل الشام الأمان ورفع الحصار ورد إلى أهل حمص ما أخذ منهم من الخراج بحجة أن المسلمين مشغولون عن نصرتهم والدفـع عنهم بما يستقبلونه من حرب حاسمة في اليرموك .

إنهم ذكروك كلما ذكروا « أمين الأمة » وكلما اشتدت الحاجة إلى قوي أمين ، وفاتح رحيم، وكلما اشتدت الحاجة الى قائد يجمع بين الشجاعة والرحمة ، والبطولة والحكمة ، والسياسة والدين ، والشدة واللين .

ذكروك يا سورية كلما اشتغـلوا بالحديث والفقه ـ وما أكثر من يشتغل في هذه البـلاد بالحديث والفقه ـ وكلما

مرت بأسماعهم أسماء حبيبة من صحابة الرسول ﷺ وقراء القرآن ، ورواة الحديث وفقهاء الأمة . كلما مرت بأسماعهم أسماء معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وسعد بن عبادة ، وأبي بن كعب ، وبحثوا عن مدافنهم فوجدوها في ربوعك وأحضانك .

يذكروك كلما وجدوا طرازاً واحداً من الملوك والأمراء والحكام والوزراء مهما اختلفت الألقاب وتنوعت الأسماء ، وجدوا الأنانية والأثرة ، والمحسوبية ، والمحاباة ، والعبث بأموال الشعوب والترف على حساب الفقراء .

ذكروا تلك الشخصية الفريدة الفـذة التي فاجأت التاريخ وفاجأت الانسانية في آخر القرن الأول الهجري، ولمع في أفقك يا دمشق نور أضـــاء له العالم ، واستقبلته الإنسانية ، فقد عم العدل واتجه المجتمع الى الدين والأخلاق ، ووجد كل أحد ما يحتـاج إليه ، وعمت الرفاهية وفقـد الفقر المدقع ، وبحث الناس عمن يقبل الزكاة فما وجدوه ،

www.abulhasanalinadwi.org

وخاف العصاة والمجرمون ، وارتدع القساة والظالمون ، تلك الشخصية عمر بن عبد العزيز - سلام الله على عمر بن عبد العزيز - شخصية كانت كوميض البرق وفلتة الدهر ، لم يزل التاريخ يحن اليها ، ولا تزال الانسانية تصبوا اليها، وما من يوم والإنسانية اليها أفقر وأشد حنيناً ، فلو لم تكن لك يا سورية حسنة سوى هذه الحسنة ، ولو لم تنجب أرضك يا سورية غير هذا الوليد ، لكفاك فخراً وكفاك فضلاً على الانسانية ، وشرفاً على البلاد .

وكم هنالك يا سورية من مناسبات كريمة تجدد ذكرك وتلفت الناس اليك ، فكم في مقابرك من عظماء الإسلام والأئمة الأعلام كم فيها من المحدثين وعلماء الرجال كابن الصلاح والذهبي والمزي ، ومؤرخين كابن خلكان وابن عساكر ، وابن كثير ، وأبي الفداء ، وأئمة كالنووي وابن تيمية وابن القيم ، وصوفية كابراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي ومحي الدين بن عربي .

وفي حجرك يا دمشق يرقد ذلك الأسد الذي ملأ الفضاء

بزئيره ، وخلع قلب الغرب بشجاعته ، كما ملكه برحمته وانسانيته الرفيعة ، ذلك الذي زحف اليه الغرب بأفياله وأبطاله ، وأسوده وأشباله ، وأجلب عليه بخيله ورجله ، فناهضه وحده ، وكسره في « حطين » كسرة شنيعة لم يقم بعدها ، وحفظ على الإسلام حرمه وحرمته ، وعلى الشرق شرفه وكرامته ، ذلك صلاح الدين - سلام الله على صلاح الدين - فلولا هو لانتهى العالم الاسلامي وتحطم الشرق ، وعاث وحوش الغرب في ربوعه يستأثرون بخيراته ويستبدون بحكمه ، ويتحكمون في أمواله وأعراضه ، ويضطهدونه في دينه وعقيدته ، ويرزأونه في أخلاقه وروحه ، وكان العالم الإسلامي كله مستعمرة غربية ، وكان فيه عشرات « فلسطين » وعشرات « الجزائر » (١) فلك يا سورية الكريمة منة على العالم الاسلامي ، وفضل على الشرق العربي في شخص صلاح الدين الأيوبي ، الذي

(١) كان هذا الحديث - على ما يظهر - أيام احتلال الفرنسيين للجزائر « الناشر »

www.abulhasanalinadwi.org

ترعرع على أرضك ، وتنبل في تربية ملكك الصالح نور الدين ، ومنه تولى قيادة الجيوش ، وفي أرضك دفن .

لقد أتى عليك يا سورية —وكنت تسمين يومئذ الشام— حين من الدهر ، وأنت تحكمين أكبر قطعه من العالم المتمدن المعمور ، وكانت مملكتك العظيمة لم تكن لتقطع مسافتها في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل ، وكان الخراج يجبى اليك من الهند في الشرق ، ومن الأندلس في الغرب ، ولم يزل سلطانك يتقلص ، ودائرة نفوذك تضيق ، وحدود مملكتك تقصر وتنزوي حتى انطويت على نفسك ، واقتنعت بهذا القطر الذي يسمى « سورية » وتخليت عن القيادة العالمية ، فما السر في ذلك يا سورية العزيزة ، وما سبيل الرجوع الى ذلك المركز العظيم ؟

ولعلك تقولين : ان العراق هو الذي انتزع مني هذه الزعامة في القرن الثاني الهجري ؛ وحلت بغداد محل دمشق فكانت مركز الخلافة ؛ وكانت عاصمة الامبراطورية الاسلامية العظيمة !

ولكني أوجه نفس هذا السؤال الى العراق ، فقد كان مصيره في منتصف القرن السابع كمصيرك يا سورية في القرن الثاني ، ان سبب هذه النكسة العظيمة التي واجهتها أنت وواجهها العراق بدوره أعمق مما ظننته .

واسمحي لي أن أشرحه ، إن سر عظمتك يا سورية وسيادتك على العالم كله ، سيادة دامت قرناً كاملاً ، هو أنك تزعمت هذه الأمة التي بعثت بعثاً جديداً وكلفت تبليغ رسالة انسانية عالمية .

تقدمت أنت بشجاعتك وطموحك وهمة خلفائك الذين كانوا يحكمون في دمشق ، وتكلفت قيادة هذه الأمة ، فكان قادتك العظماء يفتحون البلاد ، وينشرون الاسلام ، وينشرون الدين والعلم ، ويعلمون الأخلاق والفضيلة ، والانسانية والكرامة ، كذلك فعل محمد بن القاسم في الهند ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وموسى بن نصير في المغرب ، فكان الفتح والرسالة مترافقين وكان قادتك رسل الخير

www.abulhasanalinadwi.org

والفضيلة ، ومشاعـــل العلم والاصلاح ، وكانت جيوشك جيوش الانقاذ ، وكان رجالك رجال الاسعاف ، تخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وكان الناس في حاجة الى هذه الرسالة حاجة الارض الجدبة الى الامطار ، وكانوا في حاجة الى الحكم العادل حاجة المسجون الى الحرية ، فاستقبلوا رسله ورجاله وتفتحت لهم قلوبهم وبلادهم ، وارتمى العالم السليب الحزين في أحضانك ، كما يرتمي الطفل الصغير المذعور في أحضان أمه وأبيه ، وتكونت دولة من أعظم دول العالم ، وكانت لك وصاية على الشعوب والأمم .

ولكنك بدأت ـ ولا مؤاخذة يا سورية الحبيبة ـ تعتمدين على قوتك وفتوحك اكثر مما تعتمدين على قوة هذه الرسالة ، وتعنين بجمع الأموال أكثر مما تعنين بأخلاق الرجال ، وصلاح الأحوال ، وبدأ رجال الحكم وعمال البلاد وجباة الاموال

يتخلفون في أخلاقهم وصفاتهم ، وأصبحوا كسائر الحكام والعمال في سائر الدول والحكومات حتى لم يمض قرن على مملكتك العظيمة حتى صار الناس يشعرون بذلك في نواحي المملكة ، فقد حدث التاريخ أن رسل يزيد بن عبد الملك ذهبوا الى رخّج وسجستان لتحصيل الخراج والأتاوة المفروضة عليها ؛ فقال لهم ملك هذه البلاد واسمه رتبيل « ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ؟ قالوا : انقرضوا ! قال : أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وان كنتم أحسن منهم وجوهاً » ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الأتاوة شيئاً .

فقد خضع لك العالم يا سورية في القرن الأول ، وقامت عليه وصايتك ، لأنك كنت تمثلين ديناً جديداً قضى الله بظهوره وانتصاره ، وتحملين الرسالة الكريمة التي تنقذ البشرية من الجهالة والظلم واستعباد الانسان للانسان ، ولا

www.abulhasanalinadwi.org

تعيشين لنفسك ولمصالحك وشهواتك ، بل تعيشين للعـــالم ولصالحه ولخير الانسانية جمعاء ، فمشى العالم كله في ركابك وأحبتك الامم المفتوحة ، ومتى أحبت الامم المفتوحة فاتحها ؟ فاختارت لغتك وثقافتك ودينك وعقيدتك اما وقد اشتغلت بنفسك وتخليت عن رسالتك ، فقد انقطعت صلة العالم بك، واصبحت قطراً من الاقطار ، ودولة من الدول .

ولكن شأنك غير هذا الشأن يا سورية العظيمة ، ان موقعك الجغرافي ، وأهميتك الحربية ، وتاريخك الماضي ، وشعبك السليم المؤمن ، كل يشير الى انك خلقت لغـير هذا وأنك تسيئين الى نفسك وتظلمينها لو أقتنعت بالدون ، وزهدت في الزعامة العالمية !

ولكن كيف السبيل الى ذلك ، والزعامة ليست بالأمر الهين ، وهنـالك بلاد أوسع مساحة وأغنى في الوسائـل والامكانيات وأكثر عدداً وعدة ؟ !

إن السبيل الوحيد الى ذلك يا سورية ان تحملي الرسالة التي حملتها في عهدك الاول ، عهدك الزاهر الذهبي ، وان تتبني تلك الدعوة التي تبنيتها في القرن الاول فتتملكك كما

تملكتك في العهد الاول ، وتخلصين لها اليوم كما اخلصت لها بالامس ، وان تجعلي العالم يشعر بحاجته اليك ، وثيق باخلاصك ونفعك ، واحملي اليه رسالة الدين السماوي الذي اكرمك الله به منذ ثلاثة عشر قرناً يوم كنت تعانين من ظلم الرومان وحيفهم ، ما يعاني كثير من الشعوب اليوم من الظلم والاستبداد ، وشرور الاستعمار .

ان الامم يا سورية ، لا تسود باللغات والثقافات ، ولا تسود بالمدنيات والقوميات ، انما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات ، وكلما كانت هذه الأهداف والغايات أسمى وأعلى ، وأبعد عن الأغراض الشخصية أو الحزبية أو الاقليمية وأعرق في الانسانية ، كانت سيادة هذه الأمم التي تحتضن هذه الرسالات ، وتدين بهذه الغايات أعمق وأرسخ وأوسع وأقوى ، ولا تزالين تملكين هذه الرسالة ، وهي الرسالة التي حملتها اليه غزاة العرب ودعاتهم في العقد الثاني من القـرن الأول ، ولا تزالين تعرفين هذه الغاية السامية التي خرجوا لتحقيقها من جزيرة العرب .

دعي التردد ياسورية ، فـلا أضر على الأمم من التردد

www.abulhasanalinadwi.org

وخذي بالعزم ، والأمر الجزم ، واحملي راية الايمان والدعوة في الخارج ، وراية الإصلاح والتربية في الداخل ، وحاربي فساد الأخـــلاق والتحلل ، والميل الزائد الى الملاهي ، والرخاوة والترف ، فلا بقاء لأمة ولا قوة على عدو بانحلال الأخلاق ، ورخاوة الأجسام ، والترف الفاحش ، واذكري أن من أسباب إنتصار العرب تقشفهم في الحياة واحتمالهم للمشاق ، ومن أسباب انكسار الرومان تنعمهم في الحياة وغلوهم في في المدنية ، ولا تنسي أنك دائماً على الحدود فلا تضعي السلاح ولا تميلي الى الدعة والراحة ، ولا تمكني الغواة والذين تجارتهم في الأخلاق والاعراض من إفساد شبابك وإضعاف العقيدة والقوة المعنوية .

لقد كانت لنا قومية نعتز بها يوم جاء رسلك ودعاتك الى بلادنا ، وكانت لنا لغة لانعدل بها لغة ، كانت لنا عصبية نقاتل في سبيلها ، فتخلينا عن كل ذلك واندمجنا في القومية الاسلامية العظيمة وعكفنا على دراسة اللغة العربية الكريمة وتركنا العصبية القومية والحمية الجاهلية ، فالله الله ياسورية الاسلامية ، لا تتمسكي بما أبعدتنا منه من النزعات الجاهلية والقوميات الضيقة ، ولا تقعي في الحمأة التى أخرجتنا منها .

لقد طار صقر قريش من أرضك ، فأسس في الغرب دولة وحضارة بقيت مدرسة الغرب ثمانية قرون ، ولا يزال الغرب يدين لهـا في معرفة مبادىء الحضارة ومبادىء العلم والحكمة ، فأقبلي ياسورية مرة ثانية الى الغرب برسالتك وأنت في مركز تستطيعين فيه أن توجهي الغرب في حضارته وحياته وتكملي بايمانك وروحك ما ينقصه من إيمان وروح لقد كان اللائق أن تكون الاستفادة بينك وبين الغرب متبادلة ، وأن يكون التصدير بقدر التوريد ، فإذا أخذت منه مما يفوقك فيه وسبقك اليه من مصنوعات وآلات ، فكان اللازم أن تصدري اليه وتهبينه مما تفوقينه فيه من مبادىء وغايات ومما تفردت به من وحي ورسالات ، وان الحضارة المثلى التي فيهـا سعادة الانسانية هي التي تجمع بين الغايات الفاضلة والدوافع الحسنة ، وبين فـرص العمل وقواه التي يتمكن بها الانسان من تحقيق هـذه الغايات والوصول الى هذه الأهداف ولا شك أن هذه الحضارة لاتظهر الى الوجود في هذا العصر مالم يتعاون الشرق والغرب بعضها مع بعض ولم يسهما في تكوينها وابرازها ، ذلك بايمانه وهذا بتنظيمه

www.abulhasanalinadwi.org

وعلومه ، فاعرفي ياسورية ضخامة مسؤليتك وعظم الدور الذي تستطيعين أن تمثليه .

أما بعد : فقد كان لك على بلادنا فضل ، ولا يزال ، وذلك عن طريق محمد بن القاسم الثقفي ، الذي سار الى الهند بجيوش المجاهدين ودعاة الاسلام المؤمنين ، في عهد الوليد ابن عبد الملك الخليفة الأمـــوي ، فأحبته الهند وخلدت ذكراه ، وذاق كثيراً من أهلها طعم الايمان ، وكان دخوله فيها فاتحة عهد جديد .

وما دفعني الى هذا الحديث الا تقدير هذه اليد البيضاء والحق القـديم ، ولعلي قمت بذلك ببعض الواجب ووفيت شكر النعمة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

www.abulhasanalinadwi.org